

الْحَارِثُ بْنُ عُبَادٍ

حَكِيمُ الْعَرَبِ وَصَاحِبُ الْعَقْلِ وَالْحِلْمِ وَالشَّجَاعَةِ



أَنَا الْحَارِثُ بْنُ عُبَادِ بْنِ صُبَيْعَةَ بْنِ قَيْسِ
ابْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ عُكَّابَةَ بْنِ صَعْبِ بْنِ عَلِيِّ
ابْنِ بَكْرِ بْنِ وَاثِلٍ. وُلِدْتُ قَبْلَ عَامِ الْفِيلِ
بِوَاحِدٍ وَخَمْسِينَ عَامًا فِي الشُّعَيْبَةِ غَرْبَ
مَكَّةَ الْمُكْرَمَةَ، وَتَعَلَّمْتُ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ
وَالْأَنْسَابَ فِي سِنِّ مُبَكَّرَةٍ، وَكُنْتُ
أَرْتَادُ التَّوَادِيَّ الْأَدَبِيَّةَ فِي مَكَّةَ
وَالطَّائِفِ، الَّتِي كَانَ مِنْ
أَشْهَرِهَا عُكَاظُ وَدَارُ
الْحِكْمَةِ.

كَانَ وَالِدِي عُبَادٌ بَحَّارًا يُسَافِرُ كَثِيرًا، وَقَدْ
سَافَرْتُ مَعَهُ عِدَّةَ مَرَّاتٍ إِلَى الْحَبَشَةِ، لَكِنَّ
الْبَحْرَ لَمْ يُجَذِّبْنِي، فَعَمِلْتُ مُعَلِّمًا لِلْفَتِيَانِ فِي
مَكَّةَ، أَعَلَّمُهُمُ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ وَالْأَنْسَابَ.
شَارَكْتُ مَعَ فُرْسَانَ الْعَرَبِ فِي مَعْرَكَةِ
خَزَازَى ضِدَّ قُضَاعَةَ وَكُنْدَةَ، كَمَا أَبْلَيْتُ بِلَاءً
حَسَنًا فِي الْحَرْبِ ضِدَّ أَبْرَهَةَ الْحَبَشِيِّ وَقَتَلْتُ
مِئَةَ حَبَشِيٍّ. وَقَدْ اعْتَزَلْتُ حَرْبَ الْبَسُوسِ،
لَكِنَّ بَعْدَ مَقْتَلِ ابْنِي بُجَيْرٍ عَلَى يَدِ أَبِي لَيْلَى
الْمَهْلَهْلِ، دَخَلْتُ الْحَرْبَ، وَقَتَلْتُ امْرَأَ الْقَيْسِ
بْنَ أَبَانَ التَّغْلِبِيِّ، وَأَنْتَصَرْتُ عَلَى بَنِي تَغْلِبَ.
اشْتَهَرْتُ بِقُوِّي الْجَسَدِيَّةِ الْهَاتِلَةِ وَبِرَاعَتِي
فِي فُنُونِ الْقِتَالِ وَالْمِبَارَاةِ، كَمَا اتَّسَمْتُ
بِالْفَهْمِ وَالْحِلْمِ، وَالْحِكْمَةِ وَالشَّجَاعَةِ،
وَكَنْتُ شَاعِرَ قَوْمِي وَرَائِدَهُمْ، حَتَّى عِنْدَمَا
نَشَبَتِ الْحَرْبُ بَيْنَ تَغْلِبَ وَبَكْرٍ، اعْتَزَلْتُهَا
وَقُلْتُ قَوْلَةً مَشْهُورَةً صَارَتْ مَثَلًا تَتَنَاوَلُهُ
الْأَلْسُنُ: «لَا نَاقَةَ لِي فِي هَذَا وَلَا جَهْلٌ».
أَرَدْتُ الْحِيَادَ فَمَا كَانَ لِي مَا أَرَدْتُ، وَأُقْحِمْتُ
فِي الْحَرْبِ بَيْنَ بَنِي الْعَمِّ إِقْحَامًا، وَلَمْ يَكُنْ
اعْتِزَالِي الْحَرْبَ عَنِ ضَعْفِ اتَّصِفْتُ بِهِ،
أَوْ ذِلَّةِ اعْتَرَّتْنِي. ثُمَّ إِنِّي اسْتَعْظَمْتُ قَتْلَ
كَلَيْبِ مِنْ أَجْلِ نَاقَةٍ، وَهُوَ صَاحِبُ السُّؤْدَدِ
فِي عَشِيرَتِهِ، وَالْمَكَانَةَ الْعَالِيَةَ فِي جَمَاعَتِهِ.
اعْتَزَلْتُ الْحَرْبَ، لَكِنَّ الْمَهْلَهْلَ لَمْ يَكُنْ يُفَكِّرُ
إِلَّا فِي الشَّارِ، وَيَرَى إِلَّا أَحَدَ يَعْذِلُ كُلِّيًّا.
خَرَجَ ابْنِي بُجَيْرٌ فِي نَوْقٍ لَهُ يَزْعَاهَا، فَاقْتَبَدَ
إِلَى الْمَهْلَهْلِ الَّذِي سَأَلَهُ عَنِ نَسَبِهِ، فَانْتَسَبَ،
وَذَكَرَ ابْنِي اعْتَزَلْتُ الْحَرْبَ بَيْنَ تَغْلِبَ وَبَكْرٍ.

فَقَدَّمَ الْفَتَى لِيُقْتَلَ بِأَمْرِ الْمَهْلَهْلِ وَبِيَدِهِ،
فَقَالَ امْرُؤُ الْقَيْسِ بِنُ أَبَانَ: وَاللَّهِ، لِيُقْتَلَ
بِهَذَا الْفَتَى رَجُلٌ لَا يُسْأَلُ عَنِ امَّة. فَقَتَلَهُ
الْمَهْلَهْلُ وَقَالَ: بُوُ بِشْشَعِ نَعْلِ كَلَيْبِ.
بَلَّغَنِي خَبْرَ قَتْلِ بُجَيْرٍ، فَمَا كَانَ مِنِّي إِلَّا أَنْ
قُلْتُ: نَعَمْ الْقَتِيلُ بُجَيْرٌ أَصْلَحَ بَدَمِهِ بَيْنَ ابْنِي
وَإِثْلِ (أَعْنِي تَغْلِبَ وَبَكْرًا). فَقِيلَ لِي: أَتَعْرِفُ
مَاذَا قَالَ الْمَهْلَهْلُ عِنْدَ قَتْلِ ابْنِكَ؟ فَقُلْتُ: لَا.
قِيلَ: قَالَ «بُوُ بِشْشَعِ نَعْلِ كَلَيْبِ»، فَقُلْتُ:
أَوَقَالَهَا حَقًّا؟ قِيلَ: نَعَمْ. فَقُلْتُ فِي ذَلِكَ
قَصِيدَةً مَشْهُورَةً كَرَّرْتُ فِيهَا شَطْرَ «قَرَبًا
مَرْبُطَ النَّعَامَةِ مِنِّي» أَكْثَرَ مِنْ خَمْسِينَ مَرَّةً،
وَالنَّعَامَةُ فَرَسِي. جَاؤُونِي بِهَا فَجَزَزْتُ نَاصِيَتَيْهَا
وَقَطَعْتُ ذَنَبَهَا، فَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ
مِنَ الْعَرَبِ، فَاتَّخَذَ سُنَّةً عِنْدَ الْأَخْدِ بِالشَّارِ.
كَانَتْ الْقَصِيدَةُ إِعْلَانًا حَرْبٍ، ثُمَّ كَانَ «يَوْمُ
تَحْلَاقِ اللَّمَمِ» وَهُوَ يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِ الْعَرَبِ
الْمَشْهُورَةِ، وَكَانَ لِبَكْرٍ عَلَى تَغْلِبَ، وَكُنْتُ
قَدْ أَشْرْتُ عَلَى بَكْرٍ قَبْلَ الْقِتَالِ أَنْ يَحْمِلُوا
نِسَاءَهُمْ مَعَهُمْ، فَإِنَّ رَأْيَنَ جَرِيحًا مِنْ بَكْرٍ
سَقَيْنَهُ وَضَمَدَنَهُ، وَإِنَّ رَأْيَنَ جَرِيحًا مِنْ تَغْلِبَ
قَتَلَنَهُ. وَلِيَمَيِّزَنَّ بَيْنَ الْقَرِيْقَيْنِ أَمَرْتُ رَجُلَانَا
بِحَلْقِ رُؤُوسِهِمْ، فَسُمِّيَ «يَوْمُ تَحْلَاقِ اللَّمَمِ».
لِي قِصَّةٌ أُخْرَى قَالَ الْعَرَبُ إِنَّهَا تَنَمُّ عَنِ
حِكْمَتِي وَرَجَاحَةِ عَقْلِي، فَعِنْدَمَا كَبُرَتْ
سِنِّي طَلَّقْتُ إِحْدَى نِسَائِي، فَجَاءَنِي مَنْ
تَزَوَّجَهَا بَعْدِي لِيُخْبِرَنِي بِأَنَّهَا قَالَتْ لَهُ إِنَّهَا
تُفَضِّلُهُ عَلَيَّ، فَرَدَدْتُ عَلَيْهِ بِقَوْلَتِي الْمَشْهُورَةِ:
«عِشْ رَجَبًا تَرَ عَجَبًا».